

المهاتما ومريديهم في الهند

إعداد وتحرير

دانيال إتش. كالدويل

ترجمة:

جهاد الياس الخوري

الفصل الثاني

رحلاتي لرؤية المهاتما

بقلم ر. كاسافا بيلاي

أشعر الآن بأنه من واجبي توضيح التفاصيل المتعلقة برحلاتي عام 1882، التي صعدت خلالها جبال الهيمالايا وعبرتها، وكذلك بيان الغرض من تلك الرحلة.

بدايةً، عليّ أن أعود بالزمن إلى عام 1869، حين كنت في السابعة عشرة من عمري تقريباً، وكنت أتلقي تعليمي في مدرسة أنجلو- فيرناكولير¹ في "سيدابيتب"². وفي الوقت ذاته، كنت أعتاد حضور العظات التي يلقيها الدعاة البروتستانت أيام الأحاد في مدارس البعثات التبشيرية في سيدابيت وسانت توماس ماونت³. وقد ساعد على ذلك غياب والديّ التام - ناهيك عن الطريق الميسر إلى الجنة، الذي يعد به المسيحيون المعاصرون - والتمثل في "الإيمان البسيط بالمسيح، بأنه ابن الله، وأنه مات من أجلنا" - فقد أثر ذلك في

¹ AngloVernacular School.

² Sydapett.

³ St. Thomas Mount.

عقلي وأنا في مقتبل العمر، وعقدت العزم على اعتناق المسيحية.

في ذلك الوقت تقريباً، صادف أن جاء والدي إلى مدراس. أخبرته بعزمي، فبذل قصارى جهده -لكن دون جدوى- لإقناعي بالعدول عن رأيي. افترقنا تلك الليلة والدموع في أعيننا. أويث إلى فراشي ضارعاً إلى الله بحرارة: "أن يفتح بصيرتي ويُريني الحقيقة".

في تلك الليلة التي لا تُنسى -ليلة الحادي والعشرين من يوليو عام 1869- راودني حلم. ولا يسعني القول إنه كان حلماً بالمعنى الدقيق، إذ لم أكن غارقاً تماماً في النوم. لقد رأيت هيئةً مهيبَةً، تشبه تماماً "المهاتما موريا" العظيم (الذي رأيته لاحقاً على الجانب الآخر من جبال الهيمالايا، والذي يمكن رؤية صورته اليوم في مقر الجمعية الثيوصوفية في أديار). كان يحمل في يده كتاباً ناولني إياه؛ وحين فتحتُه، وجدت فيه ترجمةً إنكليزيةً لفقرةٍ من "الأوبانيشاد"⁴ تقول: "برانافا (أوم) هو القوس، والآتما هو السهم، وبراهمان هو الهدف"⁵.

ثم أنشد لي النص السنسكريتي التالي:

⁴ Upanishads.

⁵ Pranava (Om) is the Bow ; the Atma, the Arrow ;
and the Brahman, the Mark.

بارنودهانوواروهياتبراهات⁶.

وأخبرني، بأسلوب مؤثر للغاية، أن :

الحكماء الآريون قد بلغوا حالة التحرر (الموكتا)⁷ من خلال ممارسة هذا النهج، لا بمجرد الإيمان بشخص ما أو بإله ما. وأضاف قائلاً: "يا بني، لا تتعجل؛ فبلوغ "الموكتا"⁸ (التحرر) لا يتسنى للمرء إلا بعد خوض غمار حيوات عديدة".

عندها استيقظت، ولم أستطع النوم طوال الليل. وكانت النتيجة أنني اضطررت إلى تغيير قراري بأن أعتنق المسيحية.

في صباح اليوم التالي، وبينما كنت في طريقي إلى المدرسة، أحضر أحد أصدقائي -ويدعى "تشيتي"- معه من مكتبة عمه كتيباً يضم ترجمات لـ "الأوبانيشاد" (ظناً منه، عن طريق الخطأ، أنه نسخة من كتاب "نيتي شانديكا"⁹ الذي يماثله في الحجم). وحين طلبت منه الكتاب الدراسي، وضع بين يديّ تلك النسخة المترجمة؛ وما إن فتحت الكتاب حتى وقع بصري مباشرةً على ترجمة "الأوبانيشاد" التي أشرت إليها آنفاً.

وفقاً للباحث ديفيد ريغل، فإن الآية التي استشهد بها كاسافا بيلاي⁶ أعلاه مأخوذة من «موندكا أوبانيشاد»، 2.2.4. اللغة السنسكريتية كما تُكتب الآن باستخدام نظام النقل الصوتي الدولي الحالي هي: برانافو دهانوه سارو هي آتما براهما تال – لاكشيفا أوسيات.

⁷ Muktas.

⁸ Moksha.

⁹ Niti Chandrika.

رجوتُ صديقي أن يعيرني الكتاب، ففعل. وقد دفعني قراءةُ هذا الكتاب وغيره من ترجمات "الأوبانشاد" وما شابهها إلى التخلي تماماً عن فكرة اعتناق المسيحية، كما كشفت لي عن تفوق الديانة الهندوسية على سائر الأديان الثانية.

في إحدى ليالي عام 1873، رأيت في منامي "المهاتما" ذاته وهو يقدم لي كتاباً باللغة التاميلية، ثم اختفى بعد أن أخبرني بأن الكتاب من تأليف "رامالينجا باراديسي"¹⁰. وكان "رامالينجا باراديسي" هذا حكيماً شهيراً في جنوب الهند، كان يقيم آنذاك في "فادالور"؛ وقد ورد ذكره في مجلة الثيوصوفي عدد شهر يوليو من عام 1882.

طلبتُ الكتاب، وكنتُ أتلقي شرحاً للفلسفة التي يتضمنها من صديق لي كان تلميذاً له. ومن هذا المؤلف تعلمتُ فلسفة المبادئ السبعة للإنسان ونشأة الكون، والتي عُرِضت مؤخراً بشكل أوضح، ومن وجهة نظر علمية غربية، في الكتاب الثيوصوفي "البوذية الباطنية"¹¹ للثيوصوفي أ. سينت.

بعد قراءة هذا المؤلف وأعمال السيد سينيت اللاحقة، استطعت أن أفهم نفس التسامي، بل فلسفة أكثر سرانية، وردت في "ماها نارايانا"¹²، والأوبنشاد الثانية عن "الديان

¹⁰ Ramalinga Paradesi.

أوضحت بلافاتسكي في كتابها العقيدة السرية أن المقصود هو - ¹¹ البوذية الباطنية - من كلمة "بودهي" أي الإستارة الباطنية حسب المبادئ الثيوصوفية التي يتضمنها الكتاب. المترجم.

¹² Maha Narayana.

شوهانيك"13 والبرالايا الشمسية14 وعدد السلاسل الكوكبية في كل نظام شمسي.

في عام 1874، اضطررتُ إلى الذهاب إلى مدراس، وهناك - بينما كنت في منزل عمي - التقيتُ بمنجم ذائع الصيت، خبير في "نادي شاسترام"15، كان بارعاً في كشف تفاصيل الماضي والحاضر والمستقبل في حياة أعمامي وآخرين. فسألته: "ما الذي يدور في ذهني؟ وهل سيتحقق ذلك؟ ومتى سيحدث؟".

كان محور تفكيري في ذلك الوقت هو تلك الشخصية التي ظهرت لي مرتين من قبل في أحلامي، وقدمت لي كتباً، وأسدت إليّ توجيهاتٍ معينة حول ما إذا كنت سأبلغ يوماً المعرفة الحقيقية؛ ولم يكن أحدٌ ممن كانوا حولي على علمٍ بذلك.

فكر المنجم لبرهة، ثم قال لي: "إن موضوع تفكيرك الآن هو ما وراء جبال الهيمالايا، وفي غضون عامين بالضبط ستلتقي بواحدٍ منهم، لكن جهلك حينها سيمنعك من الاستفادة من زيارته في ذلك الوقت. لكن لا داعي لأن تشعر بالأسف حيال ذلك؛ ففي عامك الثاني والثلاثين، ستراه بشخصه، وسيشملك برعايته بدءاً من ذلك التاريخ".

في عام 1876، سنحت لي الفرصة مجدداً للذهاب إلى مدراس بسبب وقوع بعض المصائب العائلية الجسيمة. وبينما كنت في

¹³ Dhyhan Chohan. nic.

¹⁴ solar Pralayas.

¹⁵ Nadi Shastram.

طريقي من سيدابت إلى مدراس على متن عربة "جوتكا"¹⁶،
كنت غارقاً في التفكير في حقيقة أن مسؤوليات عائلة كبيرة
لللغاية قد أُلقيت بأكملها على عاتقي. أوقف سائق العربة
مركبته بالقرب من تينامبيت¹⁷ على جانب الطريق، وذهب
لشراء غرضٍ ما من السوق القريب.

بينما كنت في هذه الحالة الذهنية، وبينما كنت جالساً في
العربة، شعرت بيدٍ توضع على كتفيّ من الخلف. لقد كان الأثر
الذي تركه ذلك في نفسي وجسدي شعوراً سماوياً، في غاية
العذوبة، ومفعماً في الوقت ذاته بمهابةٍ جليّة، لدرجة أنني لم
أستطع النطق بكلمة واحدة. وفي غمرة هذه الحالة، رأيت رجلاً
عبر نافذة العربة، وسرعان ما وضع يده المباركة على رأسي
وقال لي - بلهجة هندستانية شمالية واضحة مزوجة بكلمات
من اللغة السنسكريتية -: "يا بني، لا تحزن؛ فستأتي أيامٌ
أفضل، ولك مني في هذه الأثناء بركاتي".

بهذه الكلمات مضى مبتعداً؛ فأفقتُ من شرودي، ورأيتُه يدخل
إلى باحة "بارفيتا ماندابام"¹⁸ المتاخمة للطريق، ثم غاب عن
ناظري.

عاد سائق العربة، وانطلق بالعربة نحو "بلاك تاون" (المدينة
السوداء). وبينما كانت العربة تقترب من تمثال "نيل"، خطرت

¹⁶ Jutka.

¹⁷ Tenampett.

¹⁸ Parveta Mandapam.

ببالي فكرة: ربما يكون ذلك الشخص الذي ظهر أمامي مرتدياً ملابس بيضاء، وبمظهر يوحى بأنه بنجابي، هو ذلك "الحكيم" أو "المهاتما" الذي تنبأ بظهوره المنجم في عام 1874. ترجلتُ من العربة على الفور، وعدتُ مسرعاً -شبه راكضٍ- إلى "تينامبيت". دخلتُ إلى المجمع وبحثتُ عنه، لكن دون جدوى؛ ولم يستطع أحدٌ هناك أن يقدم لي أي أثر يدل عليه. وبما أنه كان عليّ مغادرة مدراس في تلك الليلة بالذات، فلم أستطع مواصلة البحث. ولم يكن ذلك الشخص سوى معلمي المُبجل (غورو ديفا)، الذي يُعرف الآن في الأوساط الثيوصوفية باسم "المهاتما كوت هومي".

بين عامي 1876 و1880، أُتيحت لي الفرصة لتعلم أسرار الأدفيتا¹⁹ هذه الفلسفة على يد معلمين. وحين كانت تساورني الشكوك، أو لا أجد في تفسيراتهما للفلسفة ما يرضيني، مما كان يثير قلقي البالغ، حالفني الحظ في أربع أو خمس مناسبات بأن رأيت في منامي الوجه المبارك لـ "المهاتما" -الذي أشرت إليه آنفاً-. فإذا كان محياه باسماءً ومفعماً باللفظ، اعتبرت ذلك علامةً إيجابية، وإن كان غير ذلك، فالعكس هو الصحيح. وفي مناسبة أو اثنتين، تولى هو بنفسه تبديد شكوكي من خلال مخاطبتي شفهيّاً.

في عام 1881، حالفني الحظ بالتواصل مع أحد التلاميذ، الذي كان آنذاك في المراحل الأولى من تطوره الروحي في نيلور.

معروفة باسم أدفيتا فيدانتا. المترجم Adwita¹⁹.

قادتني صداقته إلى التعرف على الأخ دامودار ك. مافالانكار في مطلع عام 1881. وفي تلك الفترة بالذات، كان الوجه المؤلف والمقدس لمعلمي الروحي (غورو ديفا) يظهر أمامي في أحلامي بوتيرة أكثر تكراراً، وبملامح تنم عن قدر أكبر من اللطف والرضا.

في مطلع عام 1882، وتحت رعاية "الشيلا"²⁰ (التلميذ) الذي أشرتُ إليه آنفاً —والذي كان حينها يتواجد في المقر الرئيسي للجمعية الثيوصوفية في بومباي— جرت الترتيبات لتأسيس فرع للجمعية الثيوصوفية في نيلور.

بناءً على طلب من الأعضاء هنا، وصلت السيدة بلافاتسكي والعقيد أولكوت إلى نيلور، وجرى افتتاح هذا الفرع.

في الوقت الذي كان فيه المؤسسون هنا، تلقيتُ -للمرة الأولى- رسالةً من المهاتما موريا، موجهةً إليّ وكذلك إلى بعض الثيوصوفيين، تتضمن تعليماتٍ معينةً تتعلق بإدارة هذا الفرع، وما إلى ذلك.

خلال هذه الفترة، كنت أنا ونارايانا سوامي نايدو، وجي. سوبيا شيتي غارو (فرع مدراس من الجمعية الثيوصوفية)، وكذلك سينجارافيلو موداليار (فرع جونتار، من الجمعية الثيوصوفية) حاضرين في قاعة أبستاني²¹. كانت مدام بلافاتسكي تكتب على الطاولة، وكنا نحن جالسين. وحين أخبرتنا بأنها تشعر بوجود

²⁰ Chela.

²¹ Apstani.

معلمها (الغورو) في الغرفة، نظرنا جميعاً إلى الأعلى، وبعد دقيقة أو دقيقتين، سقطت أمانا رسالة من السقف في وضح النهار. لم تكن هناك أي حيل أو أبواب خفية لإحداث تلك الظواهر في ذلك الوقت.

في ذلك اليوم ذاته، وبعد مرور ساعة، وفي حضور نحو اثني عشر شخصاً أو أكثر (من الثيوصوفيين وغير الثيوصوفيين)، دار الحديث حول معرفة تاريخ معين. اقترح أحدنا (وأعتقد أنه كان "جي. سوبيا تشيتي") أن نطلب من السيدة تزويدنا بتقويم (ألماناك)²²، واقترح آخر أن يكون تقويماناً غير متوفر في "نيلور". عندئذ، انضممنا جميعاً إلى هذا الطلب.

ذكرت مدام بلافاتسكي أنها ستحاول القيام بأمر ما، نظراً لوجود "شيللا" (تلميذ) رفيع المستوى يدعى "جوالكول"²³ بجوارنا بجسده النوراني. كنا جميعاً نجلس في القاعة ذاتها، وكان هناك شرفة ملحقة مفتوحة نحو الأعلى، بحيث لا يغطينا سوى السماء. طلبت مدام بلافاتسكي من ذلك "الشيللا" أن يقدم لنا "تقويماناً" (ألماناك) كهدية، وفي غضون ثلاث أو أربع دقائق، سقط علينا - بقوة، وكأنه هبط من السماء - كتيب بعنوان "تقويم ومفكرة فينيكس لعام 1882". ناولتني إياه مدام بلافاتسكي، وهو لا يزال بحوزتي حتى الآن.

²² Almanac.

²³ Jwalkool.

أخبرتني مدام بلافاتسكي، حين كانت في نيلور، بأن «الإخوة» قد تحدثوا إليها بشأني، وأنهم كانوا يراقبونني قبل ذلك بوقت طويل، فأجبتها بأنني كنت على علم بذلك.

بعد ذلك، بدأت أفكر بجدية أكبر في ظهور "المهاتما" أمامي، سواء في الأحلام أو بطرق ثانية. ثم شرعتُ في تركيز انتباهي على الملامح الجميلة لمعلمي المُبجَّل (غورو ديفا) -الذي عرفتُ حينها أنه المهاتما "كوت هومي"²⁴- ولم يذهب صنيعي هذا سدى؛ إذ جاءني الرد على دعائي في غضون أربعة أو خمسة أيام.

منذ ذلك الحين، دأب المهاتما المبارك على توجيهي من خلال أحلامي؛ أو بالأحرى، لم تكن أحلاماً بالمعنى الدقيق، بل حالة من اليقظة الجزئية. ولعدم وجود مصطلح أدق، سأسميها "أحلاماً". وفي أحد تلك الأحلام (قراءة نهاية شهر مايو)، توسلت إليه بحرارة أن يمنحني سعادة رؤيته بجسده المادي. وبعد لحظة من التأمل، أجاب "الغورو ديفا" بأن عليّ عبور جبال الهيمالايا بمفردي.

منذ تلك اللحظة، قطعْتُ على نفسي "ديشكا"²⁵. وبعد انقضاء نحو أربعة أشهر، وحينما سمحت ظروفِي الخاصة بذلك، انطلقتُ متوجهاً إلى مدراس. غادرتُ مدراس مساء الحادي عشر من سبتمبر عام 1882 على متن قطار البريد، ووصلتُ

²⁴ Kut Humi.

²⁵ وعد، ندور. Diksha.

إلى مقر الجمعية الثيوصوفية في بومباي في الثالث عشر من سبتمبر.

في الرابع عشر، وبعد الظهر، وبحضور كل من السيدة بلافاتسكي، والسيدة كولومب، وتوكارام ناتيا، ودامودار ك. مافالانكار، وثيوصوفي آخر، تلقيتُ رسالةً سقطت على رأسي من السقف. كانت الرسالة من مُعَلِّمي (الغورو الخاص بي).

في تلك الليلة بالذات، وبينما كنت أستعد للنوم في غرفة العقيد أولكوت -حيث كانت الأبواب جميعها مغلقة، والغرفة مضاءة جيداً بضوء المصباح- ذهلت لرؤية "الشكل النوراني" لمعلمي الروحي (الغورو ديفا) -الذي أكنّ له أقصى درجات التبريل- وهو يخرج من جدارٍ صلب. سجدتُ أمامه، فباركني وطلب مني -بلغة تيلوغوية²⁶ سليمة- أن أذهب للقاءه فيما وراء جبال الهيمالايا. أما الحوار الذي دار بيننا فهو أسمى من أن يُذكر هنا. ثم اختفى تماماً كما ظهر.

في اليوم التالي، الخامس عشر من سبتمبر، انطلقتُ أنا ودام بلافاتسكي نحو الشمال. ووصلنا جميعاً - أنا وهي وبابولا - إلى تشانداناغور²⁷ في صباح التاسع عشر من الشهر نفسه، على متن قطار البريد.

²⁶ Telugu.

²⁷ Chandernagore.

تركْتُ هناك مدام بلافاتسكي وخادمها بالقرب من محطة السكك الحديدية، وعبرْتُ نهر هوغلي²⁸ بالقرب إلى الضفة الثانية، ثم سرتُ مسافة خمسة أميال تقريباً حتى وصلت إلى محطة نالها تي²⁹. ومن هناك، استقلْتُ قطار البريد المتجه إلى سيليجوري³⁰، حيث وصلت في وقت مبكر من صباح يوم العشرين. بعد ذلك، ركبْتُ القطار المتجه إلى دارجيلينغ³¹، ووصلت إليها قرابة المساء، وهناك التقيْتُ بـ "باباجي دارباغيريناث"³².

كنا معاً حتى الثامن والعشرين. سافرنا سوياً، تارةً على ظهور الخيول وتارةً ثانية سيراً على الأقدام، في كل من بوتان وسيكيم³³ وغيرهما. وزرنا العديد من "الغومبا" (المعابد). كما اضطررت إلى عبور نهر رانجيت -ذهاباً وإياباً- أكثر من مرتين، مستعيناً تارةً بالجسر المعلق، وتارةً ثانية بالقرب المخصص للعبور.

خلال هذه الرحلات، وبالقرب من "باري" أو "بارتشنونغ" على الحدود الشمالية لولاية سيكيم، حالفني الحظ وسعدت برؤية أكثر المعلمان المُبجَّلان "كوت هومي" و"موريا" في

²⁸ Hughly.

²⁹ Nalhati.

³⁰ Siliguri.

³¹ Darjiling.

³² Babaji Dharbagirinath.

³³ Bhutan, Sikkim.

جسديهما الماديّين (الشخصيات نفسها التي رأيت أجسادها النورانية في أحلامي، منذ عام 1869، وفي عام 1876 في مدراس، وفي الرابع عشر من سبتمبر عام 1882، في المقر الرئيسي في بومباي).

لقد رأيتُ أيضاً بضعة مريدين متقدمين، ومن بينهم الشيلا "جوالكول" المبارك، الذي أصبح الآن "مهاتما".

في السادس والعشرين من سبتمبر، وبعد أن علمنا بوصول كل من مدام بلافاتسكي وراماسوامي آير إلى دارجيلينغ، وإقامتهما في منزل "بارفاتي تشورن روي" (المعروف باسم "ويلو-كوت")، التقينا بهما هناك.

ودّعتُ السيدة بلافاتسكي وأصدقائي الآخرين في دارجيلينغ يوم الثامن والعشرين، واستقللتُ القطار متجهاً إلى سيلينغوري. وفي اليوم التاسع والعشرين، استقللتُ القطار إلى كلكتا، ووصلتُ إليها في صباح اليوم الثلاثين.

انطلقتُ في تلك الليلة متجهاً إلى "غايا"، ووصلتُ إليها في الأول من أكتوبر. وهناك، تلقيتُ رسالةً من مُعلّمي الروحي (غورو ديفا) بالطريقة الغيبية المعهودة. وفي اليوم الثاني، غادرتُ متوجهاً إلى "الله أباد". أقمتُ في الله أباد يومي الثالث والرابع، وغادرتُ في مساء اليوم الرابع متجهاً إلى جبل بور على متن قطار البريد، الذي وصلتُ إليه في الخامس من الشهر. وفي السادس منه، استقلّيتُ قطار البريد المتجه إلى بومباي.

كنت أنوي البقاء في بومباي يوماً أو يومين، لكن البرقيات والرسائل التي كانت بانتظاري من مدراس لم تترك لي خياراً آخر. وصلت إلى مدراس في صباح التاسع من أكتوبر عام 1882.

عند وصولي إلى نيلور في السادس عشر من الشهر، عُقد اجتماع لأعضاء فرع الجمعية في نيلور. وقد أخبرتُ إخوتي كيف رأيتُ الجسد النوراني لمعلمي (الغورو) في المقر الرئيسي في بومباي، وكيف حظيتُ ببركة رؤية "المهاتما" الموقرين للغاية والوجود في صحبتهم.

وفي الختام، أود أن أقول إنني - بفضل نعمة معلمي الروحي (غورو ديفا) - على تواصل مباشر معه، وقد تلقيت منه عدة رسائل منذ عام 1882؛ بل إنني تلقيت منه رسالة مباشرة في وقت متأخر، وتحديدًا في يناير 1885، يمنحني فيها الإذن بنشر سردٍ لرحلاتي³⁴.

ملاحظة: تم تجميع الفصل الثاني أعلاه من مقالة ر. كاسافا بيلاي³⁴ المكونة من جزأين بعنوان "كيف أجرى هندوسي من مدراس مقابلة مع مهاتما في سيكيم" والمنشورة في صحيفة "ذا إنديان ميرور" (كلكتا، الهند)، المجلد الخامس والعشرون، 3 مارس 1885، صفحة 2 و7 مارس 1885، صفحة 2.